المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

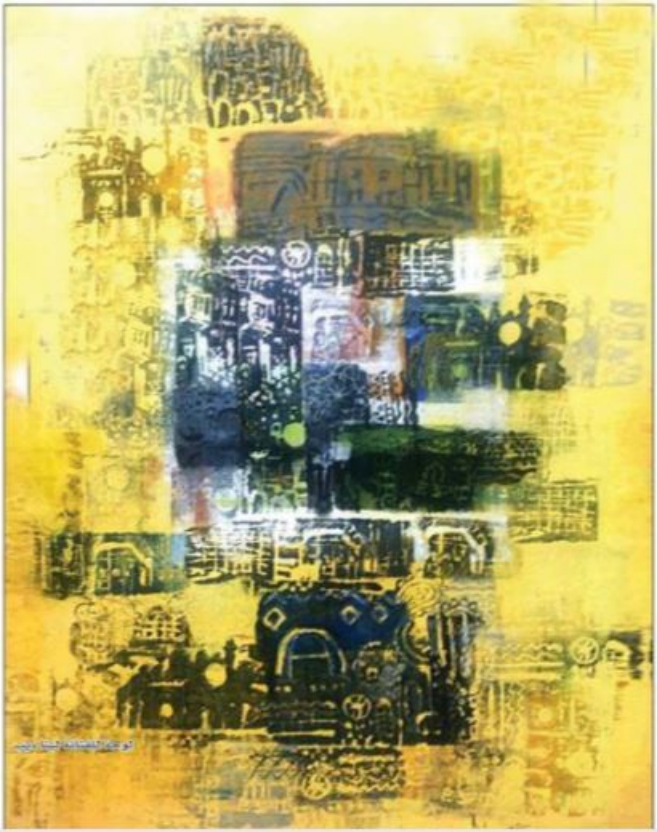

AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٦٤٧ السنة ٥٦ - ذو القعدة ١٤٣٨ هـ - آب ٢٠١٧ م

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

د. ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

أمينة التحرير

ريما محمود

هيئة التحرير

محمود عبد الواحد

بيان الصفدي

صقر عليشي

د. ملكة أبيض

د. ماجدة حمود

الإشراف الطباعي: أنس الحسن

التصميم والإخراج: ريما محمود

التدقيق اللغوي: أماني الذبيان - هاجر حرب

دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتّاب وتأمل أن يراعوا الشروط الآتية في موادهم:

- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة، وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب الآتي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - دار النشر والتاريخ - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال كان الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال كان الكتاب مترجماً.

- تأمل المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف مُوجز لهم.
- تأمل المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب محققة من قبل كاتبها وألا تكون منشورة إلكترونياً أو ورقياً.

تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها، ولاتعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة

رئيس تحرير مجلة المعرفة

تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣

www.moc.gov.sy

Almarifa1962@yahoo.com

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة. وترتيبها يخضع لاعتبارات فنية.

سعر النسخة (٢٠٠) ل.س أو مايعادلها

تضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

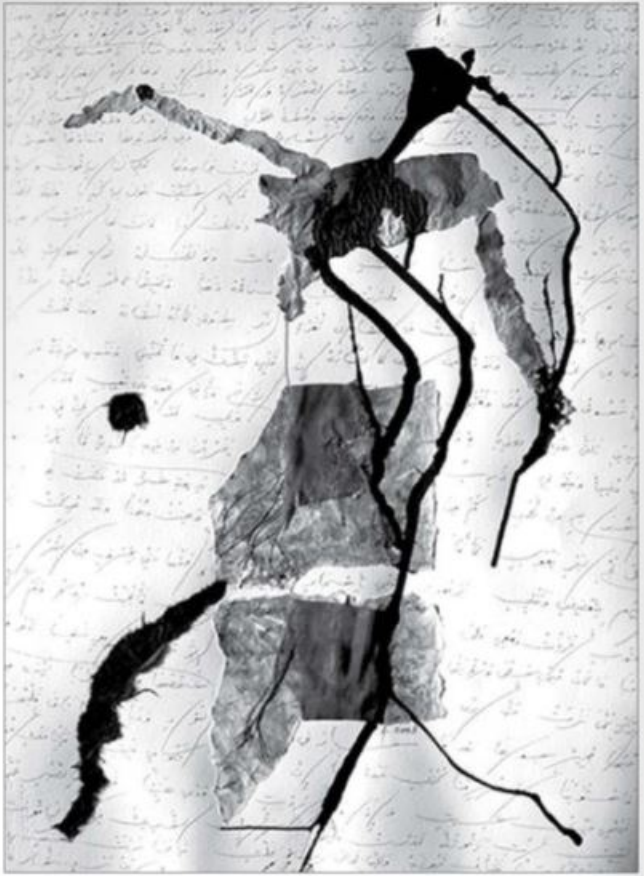

من رسومات أدونيس

في هذا العدد

كلمة الوزارة — المثقفون الحقيقيون — محمد الأحمد، وزير الثقافة

كلمة العدد — أقنعة بورخيس — ناظم مهنا، رئيس التحرير

الدراسات والبحوث:

المحافظة والتجديد في الثقافة — د. ملكة أبيض ١٦

في ذكرى الثورة العربية الكبرى (١٩١٦م) — إسماعيل محمد إسماعيل ٢٨

قراءة أسلوبية في «أم الأسير» لأبي فراس الحمداني — د. محمد عبدو فلفل ٣٧

جماليّات التّشكيل اللغويّ — د. وسام قبّاني ٤٨

الشعر ضاحكاً — بيان الصفدي ٥٩

صورة المرأة العربية في الرواية — د. هدية المليح حلواني ٦٨

قانون «حمورابي» وما سبقه من قوانين — د. علي أبو عساف ٧٦

الديوان:

الشعر

دروس — صالح محمود سلمان ٨٦

قصائد — أحمد دهنا ٨٩

صورة — صبير غالب علية ٩٢

السرد

يبرق سمك — ممدوح حمادة ٩٤

قيلولة شرقيّة — وجيه حسن ٩٧

الإشارة — ترجمة صبحي سعيد قضيماتي ١٠١

آفاق المعرفة:

الروائي السوري هاني الراهب — علي العقباني ١١٢

لماذا ينتحر المبدعون والمثقفون؟ — جميل حسين الأحمد ١١٦

متموج الكتابات والنقوش اللاتينية — د. خليل المقداد ١٢٤

مدحة عكاش ومسيرته الثقافية والأدبية — هشام عدرة ١٣٤

الباحث «إلياس بولاد» — سلوى صالح ١٤١

أبواب دمشق القديمة... ونقوشها الكتابية — كمال آل إمام ١٥٠

الروبوت في التراث العلمي العربي — د. أشرف صالح محمد ١٦٢

قصة العمارة في دمشق الكبرى — جورج. ن. جبلي ١٦٩

ظاهرة التهريب وآثارها على الاقتصاد الوطني — غسان وديع العيد ١٧٦

المتابعات:

الرأي

نحن الآباء والأجيال الشابة — سيف الدين القنطار ١٨٤

من ذاكرة الثقافة

هكذا تفهم الحداثة — تامر يوسف ١٩١

قراءات

شعريّة المكان، ألفة — أوس أحمد أسعد ٢٠٣

الفن والعمارة وتأثير البيئة في بلاد الرافدين — علي الراعي ٢١٠

رؤية الآخر للشرق — وفاء حمود ٢١٥

الأدب الأفريقي الجنوبي — الأرقم الزعبي ٢٢٢

نافذة على الثقافة

إصدارات جديدة — إعداد: حسني هلال ٢٢٩

إشارات ثقافية — إعداد: نعم حامد ٢٣٣

آخر الكلام:

فضيلة التضح — رئيس التحرير ٢٣٩

كتاب المعرفة الشهري:

اللؤلؤة — اختيار وتقديم: ناظم مهنا ٢٤١

من ذاكرة الثقافة

هكذا نفهم الحداثة

ناصر يوسف ✻

«الذكاء يتبع دائماً حال النفس، فإذا ما فقدت النفس صفاءها فقد الذكاء عمقه»

مالك بن نبي

تتفجّر الحداثة في داخلنا فتبعث صوتها الذي يلقى صداه العميق في «الذات». وفي هذه المنطقة بالتحديد - أي الذات- تنتج الحداثة. كيف؟ إن مرحلة الاتحاد مع الطبيعة لم تتم إلا بفعل «الشعور»، أي الإحساس بذلك الشيء الذي هو في داخل الطبيعة.

وهكذا سيكون الموقف بالنسبة لـ «إنساننا المثقف» الذي هو «الذات»؛ أما الحداثة فهي الطبيعة أو هي كل شيء! فينبهر بها ليحدث فجأة «الاتحاد» بفعل شعوره الناقص أمام الطبيعة الكاملة! ولكن قبل أن يحدث الانبهار ويطفى عليه هذا «الشعور الناقص» ينبغي أن يعيد الأشياء إلى مكانها: أن يعيد الانبهار إلى العقل، والشعور الناقص إلى «الذات»؛ أي أن يعيد اللاشعور/الآخر إلى الشعور/ الأنا.

✻ مفكر وأستاذ جامعي في الجزائر.

- مقال نُشر في مجلة: «كتابات معاصرة»، العدد (٢٢)، المجلد السادس، (كانون الأول ١٩٩٤م- كانون الثاني ١٩٩٥م).

عندما يقابل «إنساننا المثقف» هذا الانبهار بالعقل الذي عقله، فإنه يقارن الحداثة بالتراث؛ والشعور وحده ها هنا هو الذي يوجد مقاييس الانبهار. فإذا كان معيار الانبهار هو العقل فإنه سيضيع في الحداثة، لأن من طبيعة العقل أنه متمرّد؛ حيث «التمرد» هو جوهر الحداثة؛ أما إذا كان معيار الانبهار هو «الذات» فحتماً «إنساننا المثقف» سيدخل عصر «الصناعة الفكرية» كصناعة اللغة والشعر قديماً. ولهذا إذا أرجعنا الحداثة إلى «الذات» فإن «إنساننا المثقف» سيتحوّل من الشعور الناقص (=العقل) إلى الشعور اليقظ (=الذات). وذلك لأن الذات لها علاقة بالأصالة، في حين العقل لا يمكن له أن يخرج من دائرة الصراع بين الحداثة والتراث إلا إذا احتكم إلى الذات.

فإذا تعمّق «إنساننا المثقف» في ذاته فإنه يعمّق - بذلك- قدرته على الاستيعاب والإدراك، وبالتالي يتحوّل من التفسير الذي كان يقول به العقل - من جرّاء تقبّله للحداثة في غياب الذات الأصيلة- إلى التأويل الذي تحقّقه الذات نفسها. فالذات في حاجة لأن تشبّع بمعرفة حقيقتها (تقاليدها، ثقافتها، أصالتها، دينها ...) أي دورها في الإنسان الذي يتملكها. فالاتساع يمنح «إنساننا المثقف» طاقات هائلة من المعرفة وقوّة عقلية مؤثّرة في المحيط الذي تتشكّل فيه. فبقدر اتّساعها يكون اتّساع العقل. وينبغي على «إنساننا المثقف» أن يعتقل عقله في ذاته حتى يعقل. فيفطن إلى دوره في هذا الوجود، وهو أن ينتج لا يستورد ليستهلك، فالآخر يمدّه بالحداثة على أساس الاستهلاك المُستهلك كونه غير قابل لأن يكون استهلاكاً مُنتجاً. فالحداثة إنتاج؛ وإلّا فلا يمكن أن تتقمّص هذا المسمى، لأنها إذا خرجت عن دائرة الإنتاج ستصبح لدى المستهلكين تعرف بـ«الحدُ(و)ثة»، خاصة وأننا ألفنا منذ الصغر - باعتبارنا آنذاك مستهلكين من الشيوخ المنتجين- ابتهارنا بمن نسج هذه «الحدّوثة» من أبطال وأشرار. وهكذا هو «إنساننا المثقف» يعيش حالات الانبهار، يستهلك وكفى، وذلك لتزيين كتاباته وحواراته وأشيائه، لأنه بعيد كل البعد من أن يفكّر أو يقول فكرة، فقط، لأنّه لا يتألم من الداخل، وحيث الذي لا يتألم لا ينتج أبداً.

وتفوّق الذات يفرض مراقبة الأفكار، وليس تقبّلها هكذا مباشرة، فالذات هي «المُراقِب» والعقل هو «المتقبّل». ولهذا لابدّ من المرور بالذات للوصول إلى العقل. فالذات «الساجنة» هي التي تراقب ما هو وافد إلى المسجون الذي هو العقل، وذلك قبل السماح له بأن يتقبّل هذه الأشياء الوافدة. وإن لم يحصل ذلك فإن الذات ها هنا هي منصهر في الآخر؛ فهي غير مؤثّرة وسمجة. فمن دون العودة إلى الذات لا يمكن إنتاج حداثة، لأنه ليس بإمكان العقل بلوغ درجة

من الوعي المؤثر إلّا إذا تحرّرت الذات من سذاجتها وتمرّدت عليها، وذلك بفعل إدراك حقيقتها وحقيقة ما يمكن للعقل أن يستفيد من هذا التحرّر ومدى توظيفه لإنتاج حداثة متحرّرة.

استهلاك الحداثة

لقد عرفت الحداثة تصدّعاً في بنيتها المتمثّلة في «لا شعور الآخر»، خاصة وأنها أصبحت تشعرنا بانهيار المشروع الثقافي الغربي من الداخل؛ أي أن بنياته تتغلب عليها إرادة الضعف، نظراً لأنّ إرادة القوّة والأصالة قد تلاشت بانعدام (الأفكار/القيم) ما بعد «نيتشه». فالمشروع الثقافي ما قبل «نيتشه» كان متحضّراً داخل شعار الإنسانوية انطلاقاً من العقلانية الديكارتية- الكانطيـة وصولاً إلى الهيغلية. ففي هـذه المرحلة حدث التطابق بين العقل والعالم. لم يكن هـذا الشعار وليد مرحلة زاخرة بالعطاء الفكري؛ وإنما كان متأثراً بالوجود الذي يحتضن كل موجـودات الفساد المعرفي، وهكذا بدأ شعار الحداثة، وهو استهلاك الوجود الردي، بأفكاره وعطاءاتـه المرحلية. هكذا انطلق «الآخر» مستهلـكاً بحداثة الوجود الفاسد، وذلك انطلاقاً مـن مقولة «ديـكارت»: «أنا أفكّر فأنا موجـود»؟ فها هنا نطرح السؤال، فـي ماذا كان يفكّر «ديـكارت»؟ هل كان يفكّر في معرفة الحقيقة؟ الظاهر أنه ليس كذلك!! لأن الحقيقة لم تكن موجودة أبداً، لأنها لو كانت موجودة فعلاً لما شكّ «ديكارت» واتخذ الشكّ منهجاً في التفكير وعقلنة اللاعقل المشكوك فيه. إنه استهلك «الأخطاء المعرفية» التي ماجت بها أفكاره وحتى واقعه. فهـو استهلك ففكّر فيما هـو مستهلك، وهذا الذي فكّر فيه هـو وجوده، ولهذا فكر مستهلكاً وأبى إلّا أن يعيش مستهلكاً طبقاً لقاعدته المخطوءة.

هـذا بالنسبة لـ «ديكارت»؛ أما بالنسبة لما بعد «نيتشه» فقد تحولت الحضارة إلى مدنية قاتلـة للإنسـان وقاهرة لروحه المبدعـة. لكننا نتوقف ها هنا لنطرح سـؤالاً آخر، وهو من هـو «إنساننا المثقـف» حتى تتعبه الحداثة؟ وكيـف تعامل معها؟ أو بالأحـرى كيف عاملته هـي؟ فالجواب هو أنه مستهلـك لا غير، أي أنه/«ماركس»؛ أما كيف تعامل معها أو كيف كان التعامـل، فقد قام بتحديث ذاته وليس تحديث عقله. وهـذا هو الخطأ، لأن تحديث الذوات ليـس من الحداثة في شيء. لمـاذا «ماركس» إذن؟ لأنه يعتبر نقطة التحوّل من الحضارة إلى المدنيـة بفعل فلسفته الماديـة، كما أنه يمثّل المنعرج الخطير في تكسير قيم العقل الردي، لقد انطلق من نفسية الإنسان المثقف، فوجد هذا العقل يذكره في كتاباته ويستشهد بأفكاره؛ على هذه الطريقة كان فناء «إنساننا المثقف» في الاستهلاك الحداثي. في حين كان بإمكانه

أن يبـدأ دورتـه الثقافية من جديد لو أنه عرف كيف يستفيد مـن الحداثة المستوردة وذلك بموازاة الذات التي تكون قد عرفت إنسانها المصدر. وها هنا تصبح الحداثة معرفة مرتبطة بمفاهيمه الدينية والأخلاقية والاجتماعيـة، وليس معياراً يقيس له أفكاره. وتنطلق الحداثة حسب «فرانسوا شاتليه»[٢] من ثلاثة مفاهيم: الأصل، والمعاصر، والحال.

- أمّـا عن الأصل: «فالأصالة هل هـي طبيعة واحدة أم متنوعة؟» إذا كانت طبيعة واحدة فأصالتنا إذن جامدة، وهذا غير مؤكّد منه، وبالتالي فإن أصالتنا متنوعة، ومن ثم فهي حداثة اشترطت في تنوّعها عناصر الاختلاف، وعليه فقد كانت كل نهاية للحداثة بفعل توافر عناصر الاختـلاف هي بداية لأصالتنا، وهذا ما نفتقده اليوم، مما يدل على أننا غير حداثيين، على الرغم من أن إنساننا يدّعي ذلك.

أمّـا المعاصر: الذي هو إخضاع الواقع للمعرفة فيدو أنه ليس من إبداعنا، لأن المعاصر عند «إنساننا المثقف» هو إخضاع المعرفة (=الإنسان المثقف) للواقع (=المادة)، وذلك نظراً لتشبّثه بمقـولات «ماركس» المتناقضة. مما يدّل على أن حداثتـه غير مستقلة، لأنها ليست نابعة من عقله الناقد؛ بل من عقله المستلب وذاته الممزّقة.

- أمّا الحال: الذي هو في مفهوم «برغسون»: «النشاط الذي له القدرة على التدخل» فهو، حدسياً ومنطقياً، منعدم لدى «إنساننا المثقف».

- فلكـي يتجـاوز مرحلة الاستهلاك ويلج مرحلة الإنتاج ينبغـي أن تبدأ حداثته من تراثه وتنتهـي عند أصالته. فليبدأ من هناك وينتهي إلى هنا، إلى حيث تغيير الواقع الثقافي الذي لـم يسهـم في إنتاجه، وذلك يتم بالحفر داخل بنى إنسانه، بدءاً من ذاته وعقله ووعيه. ولهذا ينبغي أن يرى تراثه على أنّه فكر وفلسفة يسهمان في البناء الحضاري للثقافة، أو على الأقل يفيـدان كما استفاد منهما «الآخر». فهما دعوة إلـى الدّهش، حيث فعل الدّهش ينجب جنباً مؤثراً ومحوّلاً بفعل الاتصال الشرعي بين التراث والحداثة، أو كما قال «ليشنتبرغ»: «لكي نرى شيئاً جديداً علينا أن نخلق شيئاً جديداً».

لابـدّ إذن من الحداثة- هذا هو الشائع- لكن كيـف ذلك؟ الجواب يفرض سؤالاً آخر، وهو لماذا الحداثة؟ إنها عند الآخر ضرورة من ضرورات إنقاذ الفعل الحضاري من الموت؛ أي إنتاج المستحيـل (بتعبير «رولان بارت»)، أما الحداثـة في مفهومنا فهي محاولة بثّ الروح في الذي أوشـك أن يموت، وهو تراثنا الذي يختزن بداخله أفكاراً ضخمة المبنى وعميقة المعنى، والتي

هــي في حاجة إلى فلسفة بإمكانها توزيع المخزون مــن تراثنا على جهة متكافئة من الحاضر والمستقبــل، خاصة وأن الفلسفة (بتعبيــر «فتغنشتاين») هي التوضيــح المنطقي للفكر. إن التراث كفكر مختزن هو في حاجة إلى فلسفة موزِّعة، إذ إن الأهم ليس في الإنتاج والتخزين بقدر ما هو في الترويج للنصّ التراثي المختزن وكيفية توزيعه على المعارف والعلوم.

اكتشاف الحداثة

ينبغــي أن نفهــم قبل كل شيء أن الحداثة لا تنتج بالضرورة بــل تُكتشف داخل الموروث؛ حيث ما هو عميق منه فهو حداثي أصيل؛ أمّا ما دون ذلك فهو رديء منبوذ. وتظهر الحداثة في مفاهيم يكتسبها إنساننا، فتبدأ منه وتنتهي إليه.

أولاً: يتحــرّك «إنساننا المثقف» من دون وعي وهو في حالاته الإبداعية، وها هنا نتساءل أيــن وعيه إذن؟ إنّ وعيه الأصيل يكمــن في ممارسته الفعلية الفاعلة والمحرّكة لكلّ ما يتّخذ صفة الجمود. وينبغي على هذا الإنسان أن يكون في قمة استيعابه للنصوص المعرفية، فضلاً عــن ذلك ينبغي أن يبثّ فيها روحاً إبداعية جديدة تتحوّل في اتجاه كلّ ما هو عميق؛ وكلّ ما هــو عميــق لا يمكن إلّا في ذاته وليس في عقله، لأن تحصيــل المعرفة عن طريق الذات هو بمثابة تخليص العقل من شوائب الاستهلاك الحداثي، بل وتحريره من لا شعور الآخر حيث إن قــدرة الإنســان المثقف على الإنتاج والاكتشاف معاً تكون حسب صفاء ذاته، فهي من دون حضور الذات أثناء الاستهلاك الحداثي سيتورط في نهمه الانحرافي للنصوص المعرفية منها الفكريــة والنقدية، إنه ها هنا سيمارسها دون وعي حاضر بــكل إرهاصاته وقيمه وتطلّعاته؛ أي دون عمليــة تحوّل من الاستهلاك إلى الإنتاج؛ بل ستبقى مجرّد عملية استهلاكية دورانية. لكن فــي حالة حضور الوعي الذاتي ستظهر «زائدة فكرية» فــوق ذلك الفكر المستهلك؛ أي فوق النص المعرفي المستورد. إنّها قدرة الابتكار تتجلّى في توصيل المعرفة بالوعي، فتقدّم إنساننــا له علاقة بأهمية الوعــي بالممارسة الفعلية التي تظهر أثناء الاستهلاك، والنظر في ما هو مستهلك نقداً وتحليلاً.. وهكذا تكون بداية الحداثة.

ثانياً: لا معنى لـ«إنساننا المثقف» إن لم يتحرّك في اتجاه البحث عن ذاته وهو يتجشّم عناء الفكر والنقد؛ وهكذا هو في مفهوم الفيزياء، حيث أيّ إنسان وعلى الرغم من حمله لثقل ما فإنّ ذلك لا يندرج في إطار القيام بعمل، فهو يحمل صبغة عملية متى قام هو وعمله (أي ثقله) بحركة فعليــة. ومن ذلك نفهم أنّه وهو يستهلك الحداثة لا يتحرك عملياً، لأنّه لا يتألم أثناء حمله لثقل معرفي كونه مستهلكاً ليس إلّا. فمتى يحمل ثقلاً معرفياً من إنتاجه يكون قد تحرّك نحو معرفة حقيقــة ماضيه الفكري وحاضره. إنه صاحب إمكانــات ثقيليّة تجسّدها «الحركة». والحركة ها هنــا محكومة بحركات أخرى شبيهة بالتفاعلات الكيميائية. ولا نقصد بالتفاعل الانفعال الذي جمّد حركة الإنسان المثقف، خاصة وأن الإنسان ينفعل في حركاته ولا يتفاعل مع ممارسته.

هذه «التفاعلات» تشكّل مزيجاً معرفياً يتكوّن في داخل العملية الاستهلاكية والإرهاصات المعرفيــة للمستهلك (=إنساننا المثقف)، حيث فــي هذه الحالة لا ينبغي أن يحدث الانفعال بين المادة المستهلكة والمستهلك، سيجرّد المستهلك الحداثة من كلّ أدواته الفكرية والنقدية التي يختزنّها لديه؛ إذ إن العملية الاستهلاكية ستمتصّ قدراته الإنتاجية بجاذبية الانبهار التي تفوق عملية الإنتاج، ولتجاوز ذلك من الضروري أن يحدث التفاعل الطبيعي الذي يتيح فرصة الخروج من دائرة الرداءة بفضل المادة المستهلكة كضرورة قصوى لإنتاج ما هو أصيل وبديع، وذلــك كي يتسنى له أن يعــرف كيف يصنع مبدعاته في الزمنيــن الماضي والحاضر. فعليه أن يعــرف بأن «الزمن الثقافي» مظهر من مظاهر «الحركة النقدية» لكي يدرك كيف يتفاعل بمقــدار الزمن الثقافي في الحركة النقدية؛ لا أن ينفعل بمقدار الزمن الذي يقدّره لانفعاله، لأنّــه بهذا المنطق سينتحر فــي الزمن الثقافي الذي لا يتحكّم فيه، والعكس غير وارد بتاتاً.. وهكذا نبحث عن الحداثة.

ثالثاً: علــى «إنساننا المثقف» أن يتصوّف بعمق في عيشه حتــى يفكّر بعمق، نقصد أنّه هــو الذي ينتج الواقع الثقافي ويتحكّم فيه بأفكاره الجمالية وتوجّهاته الأخلاقية، فلكي تكون الحياة الثقافية عميقة ينبغي بالضرورة أن يكون عملاقاً نقداً وفكراً، فوجوب الحياة الفكرية المتصوّفــة القوية هو ضمان لقوة الفكر وزهــده في الخير والحقّ والجمال، حيث إنّ العكس غير مرغوب فيه، لأنّه مجسّد في صيغة عقل تابع وفي أخلاقية إنسان لا يبدع وأمّة لا تنتج. فالعيشــ المتاح داخل التنوّع الثقافي الأصيل؛ والتحــرّك النقدي المؤثّر في كل ما هو رديء والمزلــزل لكل مــا هو عصيّ وجامد يُعتبر ضرورة لإحداث آليــات التفكير لدى الراغب في معرفــة أسرار الحياة الفكرية والأبعاد الحداثية وهــو ينشدهما لنفسه على أساس الانطلاق الحيــوي لإحياء عقله وتحريكه في اتجاه كلّ ما هو عميق. فالجودة الفكرية الأصيلة تفرضها النوعية الثقافية الحداثية، في حين «النوعية» هي رغبة المثقف الذي يعيش للتنويع الإنتاجي حتــى يخلق وسطاً ثقافياً تكتنفه الجودة الرفيعة برفعــه المبدع/المبتكر، وسموّ طموحه في سبيل تحقيق إنتاج رفيع وإيجاد إبداع أصيل... وهكذا طريق الحداثة.

رابعاً: يتكرّر المثقف في المكان ولكنه لا يتكرّر في الزمن، ونقصد أنّه يتكرّر في التخلّف والتراجع، ولكن لا يتكرّر في التقدّم والعطاء، لأن كل ما له علاقة بالمكان كالماضي الذي لم يُحرّك والحاضر المستورد مثلاً يدخل في دائرة الأشياء المعبودة من قبل الإنسان المثقف في شكل ذكريات أو أمنيات أو عزاء للنفس الكسولة والعقل العاطل؛ أما الفكرة المؤثّرة فلا وجود لها إلّا في الزمن، حيث يمكن تصوّرها في الحاضر وتجسيدها في المستقبل، وإن كانت ملامحها مستوحاة من الماضي. فالفكرة الثائرة ليست لها علاقة بالمكان، فالمكان أحادي الجانب، في حين الزمن متعدّد الرؤى. فهو مبعثر في الذهن وملك لكل الأجيال الحاضرة والمستقبلية، حيث كل هذا يدل على أنّه من الضروري أن يفكّر المثقف للآخرين الذين لهم علاقة بالزمن؛ لا أن يقتصر على حاضره الذي له علاقة بالمكان فقط. فالثقافة التي لا تُقلق وتؤزّم وتؤلم لا تؤسّس للمستقبل.

لا مناص إذن من القول إن المكان والزمن يتجسدان معاً ويفرضان حقيقتهما من أجل تحقيق الرغائب المعرفية والتحصيلية عموماً. بيد أنّهما يختلفان في مركز البعد الذي يشكّلهما؛ حيث المكان هو الحاضر الذي يتكرّر في الماضي؛ أما الزمن فهو الماضي والحاضر الذي لا أهمية لهما إلّا إذا تحققا في المستقبل. فالزمن إذن هو فرصة للخروج من قوقعة التحجّر/الماضي (الجامد) إلى فسحة التقدّم/ المستقبل الذي هو مجموع الماضي والحاضر معاً. في حين تكمن أهمية المكان في إحداث نقطة الثوران/ الحاضر. فعلى المثقف أن يعيش مكانياً كضرورة لاستيعاب تحوّلات الواقع الثقافية؛ أي ينبغي في هذه الحالات الفاترة التي تمرّ بها مؤسسة عقله المفلسة أن يستفيد من ثقافة الآخرين للخروج من الإفلاس الثقافي والفكري، ولن نؤكد أنّه لا تحرر من هذا الإفلاس، بل ومن الآخر، إلّا بالإنتاج والإبداع. فهذه هي ضرورة المكان؛ أما الزمن فكفيل بأن يضع أبعاد التجاوز، ومن ثم الاستقلالية في الإبداع الثقافي، والتصوّرات الفلسفية للحاضر والمستقبل وكذا الماضي المتحرّك.. وهكذا نعيش للحداثة.

خامساً: على المثقف أن يتحرّك من الداخل؛ أي من عمقه الثقافي الذي تشكّل وفقه، لأنّ ذلك أقرب إلى معرفته بذاته؛ حيث الإبداع من طبيعة الذات. فالذات موجودة بداخله؛ أي أنّها موجودة بأصله. والعدوّ بما فيه الاجترار الحداثي والفساد المعرفي، وكلّ ما يتسبّب في قتل الروح المبدعة في المثقف هو موجود بداخله؛ أمّا القضاء عليه سطحياً أو محاربته من الخارج فمن باب العبث المستحيل. لماذا من الداخل؟ لأنّ الثورة تحدث بالداخل، والانقلاب الذاتي هو الذي يفتّتها ويعدها للمستقبل الهادف/«الخارج». فالإنسان المثقف هو منبت أسرار ثقافية متأصّلة في عمقه النقدي ونظرته الفلسفية للحياة. ولهذا من الضروري أن

يتحقّق من أصالتها بمعرفة ذاته وتصفيتها من الشوائب المستهلكة. فصفاء الذات وإدراك معاني أهداف إنسانها كفيلان بأن يؤثّرا في نظرة المثقف نفسه للحياة؛ بل وتزيد في عمق تصوّرها لها؛ كما لو أنّها تمنح للعقل قوّة على معرفة الحقيقة الفكرية وإدراك معانيها الفلسفية. فلا يمكن معرفة أو إدراك قوّتها الحقيقية إلّا إذا قام المثقف بقطيعة على ما هو تكراري؛ أي مع ما هو مستورد كلّية أو مستهلك لا فائدة ترجى منه، لأن عشق المستوردات والمستهلكات يفرض الدوران في حلقة مفرغة؛ وحيث إرادة الذات تتنافى مع كل ما هو تكراري وروتين غير عميق، ينبغي بالضرورة الالتفات إلى حقائق أخرى تجعل المثقف ينسجم معها؛ بل ويجدّد فيها كلما اقتضت الضرورة النقدية ذلك، ولهذا فإن إرادة الذات تتفوّق في ظلّ كل ما هو محليّ قابل للنقد الذاتي؛ أي يقبل التجديد الفكري ويتطلع إلى إحياء كل ما هو ميّت، وكذلك في ظل ما هو مستورد يقبل النقد الموضوعي لما هو مميت.

فمعرفة جديد تتضاف إلى الذات المتجدّدة هي دعوة إلى تحرير المثقف لنفسه من شوائب «الداخل» الذي تنبع منه القدرة على العطاء الفكري؛ أي من أعماق الذات، وليس من الخارج، أي من قشرة العقل. فالقلب - على سبيل المثال- الذي هو أحد رموز تطهير الذات في فلسفة «الغزالي» يتمركز بالداخل، في حين يبقى الخارج ضرورياً له لأنه ها هنا يعبّر عن الحياة اللازمة للمثقف، وهو يتمثل في الهواء الذي له علاقة باستمرار نبض القلب. وهكذا، فإن العقل (=الخارج) لا يستطيع أن يواجه سلبيته بنفسه وهي المتمثلة في الخضوع الاستهلاكي للحداثة. فهو في هذه الحالة يحتاج إلى من يزيح عنه هذا الاتّباع الذي يحرّض «إنساننا المثقف» على الانتحار الفكري واللاإبداع. هذه الإزاحة تتمثل في فعل الإرادة حيث الإرادة لا توجد إلّا في الذات؛ بل وتنشط بواسطتها. فبالذات يعترف المثقف بهزيمته ويدرك العقل هذه السلبية القاتلة لروحه المبدعة: سلبية الاستهلاك الحداثي، وبالتالي الانتقال من الاتّباع والإبداع؛ أي التحوّل من الخارج إلى الداخل حتى تتسنّى العودة إليه بقوّة منتجة ومستقلّة.. وهكذا نفهم الحداثة.

سادساً: المثقف هو صانع أحداثه، بمعنى أنه هو خالق التاريخ، وذلك من جرّاء الأحداث التي أوجدها. ولهذا بإمكانه أن يعيد صياغة العالم وفق الشكل الذي يتصوّره. فقد كان هناك عظماء رسموا لأنفسهم هذه الصورة، وهي محاولة اكتشاف العالم؛ لكن هذه الصورة ظهرت مقلوبة، لأنهم تصوّروها من الخارج الذي منحهم فرصة للأخذ من قواعد فكرية جاهزة، فلم يكن يهمّ هؤلاء في ذلك الطريقة؛ بل الهدف. في حين أنّ الهدف غير موجود في الخارج وإنما يتأسّس بالداخل. إن ما يهمّ لدى مستهلكات المثقف هو إنسان هذا النموذج الذي وهب نفسه لخدمة

العمل، على الرغم من أن النتائج تحمّله بالمحاسن والمساوئ. فمن هذا النموذج ينبغي أن ينطلق المثقف بشرط أن تكون هذه الانطلاقة من الداخل أي من عمق الذات، فذلك يتيح فرصة عظيمة لفهم حقيقة ما هو مقبل عليه وإدراك أهمية ما يبدع وما ينتج. فنحن والآخر نتفق مع أشياء الخارج ولكننا نختلف في حقائق الداخل وهذا ما يُتيح له المجال لأن تكون انطلاقته غير انطلاقة الآخر. فلأنه يختلف معه في الداخل معنى ذلك أن بدايته ستؤسّس على عنصر الأخلاق. وبالتالي فأيّ وثبة إلا وسيكون قد عرف قيمتها بالنسبة للمجتمع والإنسانية عموماً؛ أما تحقيقها من الخارج فذلك شيء طبيعي، لأن ذلك الخارج ستتحكّم فيه العوامل المشتركة (العمل، التوازن، الزمن...)؛ أما عنصر الأخلاق فهو قدرة لا يدركها إلّا من عرف حقيقة ذاته، وهذه لا يعرفها ولن يعرفها الآخر. فهو يفكّر خارجياً أكثر مما يعقل داخلياً. إذن أهمية الداخل هي كل شيء في حياة المثقف الذي يسعى إلى الإبداع الذي يعود عليه بمنفعة عظيمة وموثّرة في الجوانب الفلسفية التي تحيط بتصوّراته وغاياته الهادفة... وهكذا نؤسّس للحداثة.

سابعاً: تعتبر الروح مقياس وجود الإنسان المثقف ومدى تعمّقه في المحيط الثقافي. فهي زينة الجسد المثقف وهيكله المرن. فالمثقف من دون روح هو عبث ليس إلّا. هكذا هو إنساننا – حالياً – مادة في يد الآخر (=الاستهلاك الحداثي) يحرّكها كيفما شاء، حيث له حرية التصرف في الكيفية التي يشكّل بها هذه المادة ويصنعها بمخيلته الخاصة!! وبالفعل هكذا هو إنساننا مصنوع أكثر منه بادرة للصنع، لأنّ روحه قد سُلبت منه، فهو ها هنا الميت في قبره، وهو بذلك لا يستطيع أن يتحسّس وخزات الدود أو يطرده عن جسد المتخيّب. فالجسد في هذه الحالة قد فقد وعيه المحرّك الكامن في الروح. بهذه الطريقة يمكن أن نتصوّر «إنساننا المثقف» في ظلّ هذا الواقع الذي يتحكّم فيه الآخر، كما لو نتصوّره في القبر الذي ضمّ إليه الأجساد الفاقدة لروحها. في حين الروح هي أقوى من أن تدنّس لأنها مقدّسة. فالقبر إذا دخلته الأرواح – رئيس الأنبياء– سينقد شكله المهيب. وكذلك هو الواقع المعاصر إذا دخلته «روح» المثقف فحتماً سيتغيّر شكل العالم الثقافي. لأن المثقف بهذه الطريقة الروحانية يكون قد تغيّر، فأن يتغيّر المثقف يعني أن العالم سيتغيّر لأنه نواة العالم. وباعتبار أن المضمون قد حقّق فعله الناضج بفعل عودة الروح للجسد الميّت، والفاعل الموثّر هو المثقف. إذا نهض بذاته وروحه (=قوته الداخلية) سيهتزّ عقل العالم؛ أي سيتغيّر شكل الخارج ومن ثم سيتغير الواقع ويأخذ منحنىً فكرياً آخر.

إنّ «إنساننا المثقف» بعودته إلى عمقه التاريخي والثقافي والديني سيكون «نقطة التحول» في حياة الإنسانية الفكرية والنقدية والحداثية والجمالية والأخلاقية. هذه كلها ستنتهي

به إلى ممارسة الفعل الحضاري المجسد في النضج أو «التطور الخالق» الذي نادى به «برغسون» إذ إنّ التغيير الذي يعتبر حالياً هاجس الإنسان سيتقن هذه المرة «فلسفة النضج» التي لا تعرف حقيقتها إلّا في ظل عودة الروح إلى الجسد. فاستيعاب دور الروح في إنقاذ الحضارة من الموت سيتحقّق بفعل النضج.

إنّ العالم الذي يستهلك منه «إنساننا المثقف» الحداثة لم يصل إلى التطور الخالق رغم التغييرات الحاصلة فيه والثورات المؤثّرة في الأبعاد الفكرية الآخذ بها منهجاً ورؤية، بل إن هذا العالم قد انتقل من الحضارة/الروح إلى المدنية/المادة، ولم يفلح في المزج بينهما! أما المثقف فقد مرّ بهذه الثورة في بداية رسالة الحق حيث كان النضج (=استثمار الروح) سبيلاً للوصول إلى التطور الخالق، لكن بعد خفوت صوت الرسالة الإسلامية في واقعنا هذا، لم يحدث التغيير إطلاقاً. وإن كان كذلك فهو لم يستند إلى قوة النضج. وعليه فينبغي على «إنساننا المثقف» أن يستوعب حقيقة «النضج» التي تستثير بالعودة إلى الروح، وذلك لإنارة كهف الجسد حتى تتاح الفرصة الثانية للتطوّر الخالق. فحضارتنا ليست في موقع الميت؛ بل هي في موضع السقوط؛ أي أنّ هناك احتمالاً للنهوض. فليعجّل إنساننا قبل أن ينزلق. ففي الانزلاق اصطدام، خاصة وأن المدنية الحديثة موبوءة بمرض السيدا. فليتجنّب هذا الاصطدام الذي ينقل إليه هذا المرض؛ حيث لن يكون ذلك إلّا بالعودة إلى ذاته وروحه وكلّه.. وهكذا نستقل بحداثتنا.

ثامناً: توحي اللغة بمجيء الفكر.. وهكذا هو المثقف لا يعطي أهمية بالغة للغة أثناء الممارسة الحداثية، هو يكتب الحداثة ولكن بلغة تختلف عن لغته؛ أي أنّه يكتبها بلغة الحداثة المستهلكة، حيث كلنا على علم بأن الحداثة سلعة فكرية مستوردة، كما لم نعلم بأن إنساننا بعقله الردي، ما يستورده لا يقيسه بمقياس ثقافة مجتمعه؛ بل يحيله إلى النظام المعرفي؛ أي إلى تراكمات، وذلك لا لينطلق منها وينتهي بها عند ذاته وأصالته؛ بل لينتهي إليها وكأنه بلغ قمة المعرفة وذروة الفكر. هكذا هو في حالة الاستيراد الاستهلاكي لا يحيل ما استورده إلى معيار الذات؛ وإنما يحيله مباشرة إلى التركيب العقلي، فيركّبه وفق معيار النظام المعرفي الذي يتشكّل بداخل رغماً عنه؛ أي داخل ما هو مستورد، في حين أن العقل يتقبّل كلّ شيء على أساس أنه إله الانفتاح (!) لدى العقلانيين المتطرّفين في رؤيتهم للأشياء على حقيقتها. صحيح أن إنساننا في حاجة إلى العقل، ولكن العقل كوسيلة؛ وسيلة الهضم، حيث نتائج هذا الهضم لا تظهر إلّا في حالة «مراجعة» المهضوم؛ ها هنا هو تقبّل المعرفة؛ أما دور المراجعة فيكمن في تحويل هذه المعرفة إلى ثقافة لها هويّتها الشخصية وخصوصيتها الاجتماعية والتاريخية والدينية. لكن كيف يتم ذلك؟

توحي اللغة بمجيء الأفكار، في حين أن الأفكار هي التي تكتب اللغة، وهذا هو سر ضعف المثقف في عدم تقبل الحداثة من وجه مُغاير، وجهه هو. فلو تقبّل الحداثة كفكر وأخضعها لذاته كمنبع لتوليد اللغة لتمكّن من إيجاد حداثة خاصة به، لكنه تقبّلها كمعرفة بالعقل وكتبها كإبداع بالعقل أيضاً، وذلك يدلّ على أنه يستوردها كمعرفة وإبداع في آن!! فالحداثة التي يتقبّلها عن طريق العقل أصبحت تشترط عليه «منطقاً عقلياً ثالثاً» هو منطق اللغة. فلو يرجع بالحداثة إلى الذات فإنه سيموقع إبداعه الحداثي في الطريق الثالث، الطريق الوسط (=طريق اللغة). وعند طريق اللغة التي تمّت نتيجة العودة إلى الذات والعمق البيئي، ستتحدّد لديه نوعية الإبداع الحداثي ومدى زيفه من أصالته؛ حيث يمكن توضيح ذلك في هذا الشكل: (حداثة (=معرفة)←اللغة(=الذات) الحداثة ← (=الإبداع)).

فعن طريق المنطلق الثالث (الوسط) تظهر آفاق الحداثة المبدعة، إنه الإبداع الذي ينمّ عن أصالة المبدع الذي انتقل تراكمه المعرفي إلى المخزون اللغوي، وذلك على أساس المراقبة الذاتية وما يتمشّى مع النمط الاجتماعي والواقع الإنساني، وبالتالي العمل على توزيع هذا المخزون اللغوي على المتلقّي، بما فيه المستهلك والمنتج، بعد تغليفه وتجميله بالطابع المحليّ الأصيل، ممّا يؤدي إلى الحصول على حقّ الامتلاك الإنتاجي وفق تصديره. فللمراقبة اللغوية (=الذاتية) أهمية في إبراز الشخصية المفكّرة حداثياً.

وهكذا إذن، فعبقرية «إنساننا المثقف» تكمن في لغته؛ أما عظمته فتتجلّى في أفكار لغته. لابد إذن من سحق الفساد المعرفي والعودة بروائع الفكر العالمي إلى الذات، إلى اللغة، إلى التراث الذي يُمدُّ للمستقبل. فإذا كان «عليّ» كرّم الله وجهه قد قال: «لولا الكلام بعاد لنفذ»، فمعنى ذلك أن إنساننا مازال في جموده الفكري وقصوره الفلسفي، لأن كلامه مازال يعاد. ولولا فكر الحداثة المستهلكة المصبوغ بكلامه ولغته لكان انتهى. ولهذا لابد من صناعة «الكلام المبدع» والعودة به إلى الذات ليتحول بدوره إلى لغة جديدة مستقلّة، ومن ثم زفّه إلى العقل ليتحوّل هو الآخر إلى ثقافة تسهم في تغيير العالم، وكأنّ بالدورة الحضارية تصرخ في عصرنا الحداثي بمنطق «لولا الكلام (يُصنع) لنفذ». وهكذا الفكر يوسّع من دائرة اللغة، كونه من دون لغة (=تحديد المفاهيم)؛ ومن دون العودة إلى الذات (=النمط الاجتماعي والأخلاقي)؛ ومن دون عقل (=إبداع الأصالة والثقافة العالمية) لا يمكن نقل الحداثة كمعرفة إلى الإبداع الذاتي والاستقلال الفكري... وهكذا اللغة تسهم في رسم أفق الحداثة.

إذن، الحداثة هي تحريك للفعل المعرفي الذي يحتويه عقل «إنساننا المثقف». كيف ذلك؟ يعرف المثقف أزمة داخل مؤسّسة عقله؛ هذه الأزمة قد تشكّلت من الضعف المعرفي لدى المتلقّي، وكذا نتيجة القصور الرؤياوي في التعامل الاستهلاكي مع الحداثة.. ولعل الخطوات الثمانية التي ذكرناها آنفاً تكفي لتفتيت هذه الأزمة المعرفية، وذلك بعد إحالتها على الذات؛ أي ردّها إلى المكتسبات الثقافية؛ حيث إنها غير متوافرة في مؤسسة عقله؛ وإنما هي مختزنة في تاريخه الحي الذي انتهت حوادثه الفاعلة في عصر الانحطاط وزيّف في عصر التنوير العربي «المظلم»؛ إذ شهد هذا العصر موت الذات المبدعة داخل «إنساننا المثقف» وبزوغ «العقل التابع» خارجه، ولما نقول في «الخارج» فمعنى ذلك أن «إنساننا المثقف» لا يملك عقله؛ بل صار يملكه الذي يستهلك منه الحداثة. وعليه فالذات» هي الكفيلة بتفتيت الأزمة؛ أما العقل فإنه يؤجل الأزمة ولكن لا يُفتّتها.

لقد تعامل المثقف مع الحداثة المستهلكة بالعقل، في حين هذا العقل يشهد أزمة، وكذا الاستهلاك الحداثي قد احتوته أزمة الفكر الآخر الذي يسعى إلى إنتاج المستحيل!! وهكذا لنوصل إلى أن الأزمة (=عقل «إنساننا المثقف») تتعامل مع الأزمة (=إنتاج المستحيل)، وبالتالي فإن العالم الثقافي يعرف أزمة شاملة لا ينتشله منها إلّا الذي يبدأ من حيث انتهى، ولهذا ينبغي على «إنساننا المثقف» أن يبحث عن نقطة الزمن التي توقّف عندها تفكيره المُسهم في تشكيل ثقافة العالم. كما كانت مهمّته قبل عصر الانحطاط، حيث يتسنى له الرجوع بالعالم الثقافي إلى التطهير الفكري؛ لكن أن يبدأ من حيث انتهى «الآخر» – الذي يعرف نهاية تفكيره بإنتاج المستحيل!!- فذلك انتحار حداثي، كون ذلك لا يساعد إطلاقاً على احتواء المثقف للمراحل الثقافية الجديدة بل يدعوه إلى التراجع في كل مرحلة جديدة. وأعني بذلك مرحلة القرن الجديد الذي لو يعرف «إنساننا المثقف» كيف يستثمر تاريخه الثقافي والفلسفي والديني داخل ذاته – وذلك كخطوة أولية لتفتيت الأزمة التي تتخطّف مؤسسة عقله- فسيكون هذا القرن بمكتسباته الاستراتيجية ملكاً له؛ بل وسيصبح المتجدّد داخلياً مركز هذا القرن الجديد، وباعث النور الثقافي في كهوفه الفلسفية والإيديولوجية المظلمة.